٢ ـ الجـــارم البرىء

للأستاذ حبيب الزحلاوى

ركنت إلى الريف أبيع سلعى لا أنفق إلا نادراً فى شراء سيجارة أو كوبة شراب أو إرضاء رغبة متواضعة ، وإن هبطت المدينة فإنما أهبطها لأدفع ما على من دين لعميلى أو أودع فى المصرف ما يتبقى معى من مال

أخذت أرقام ريالاتى تزداد أسبوعاً بعد أسبوع ، وشهراً بعد شهر ، فصرت أسخو بتحويل عشرات منها لوالدى ولأنيسة

لم يكن شىء فى الوجود يعادل فرحى حينما كنت أقرأ كتاباً وارداً من والدىّ يقول أبى فى ختامه ، « أما خادمتك أنيسة فتهديك السلام وتقبل يدك » .

كنت أغتفر لوالدى تمسكه بعادات أصيلة واعتبارات تقليدية فى كينونة المرأة ، وكنت أطلق أعنة خيالى تجول فى عوالم الرؤى أتصور نفسى ملقى عند أقدام « خادمتى » أنيسة أقبل يديها .

أجل ياصاحبى كنت أبعث بكتاب فيه تحويل مالى وألحف فى طلب وصل بالاستلام لأقرأ تحيات بريئة ساذجة ولازمة مستحبة لا يحيد والدى عن تسطيرها بالنص الواحد فى كل كتاب : « خادمتك أنيسة تهديك السلام وتقبل يدك » .

اتقدت نيران الحرب العالمية عام ١٩١٤ وامتدت ألسنتها المحرقة إلى جميع أرجاء العالم القديم ، أما العالم الجديد ، برغم اشتراكه فيها فى الساعة الأخيرة ، فقد راجت أسواقه التجارية وعم الرخاء كل الناس . كنت إن أعجب من شىء فعجبى من أخبار كانت تنشرها صحفنا العربية فى أميركا عن بؤس الناس فى لبنان وموت بعضهم جوعاً ، ولم يكن يخامرنى شك فى أن أنيسة المحبوبة ووالدىّ العزيزين أبعد من أن ينالهم ماينال الناس الذين تكلمت الصحف وأطالت فى وصف حالهم ! .

انقطعت أسباب الاتصال بينى وبين أهلى ، ولكنى كنت أغالط نفسى ، أتعمد المغالطة ، فأرسل الرسائل والتحاويل المالية كالعادة إليهم بدون انقطاع ، وأتهم إدارات البريد بالتقصير فى القيام بالواجب ، وكنت أطمئن إلى المغالطة المستحبة لتحيد بى عن مجابهة الحقيقة . وما كادت أجراس الهدنة تدق معلنة رجوع الإنسان إلى وعيه وانعتاقه من وحشيته التى لابسته طوال أربعة أعوام ، حتى عقدت العزم على العودة إلى الشرق . عند سفرى إلى أميركا كان الأمل يحدونى ، وقد افتر لى ثغره وابتسم ، فصار حين عودتى منها إلى وطنى يحدونى الشوق والفرح ، فهل ينضحانى يا ترى بأندى السعادة ؟ كنت فى الذهاب أستحث الباخرة لتصل بى إلى ميدان الجهاد والعمل ، وقد توسلت إليها فى الإياب أن تسرع السير لأصل إلى مقام الحبيبة ، مقر الوالدين ، فهل يلازمنى الحظ فى هذه المرة أيضاً ؟ كان دنو الباخرة من الشرق ينسل خيوطاً من غشاوات غالطت نفسى فى تبين ما وراءها ، ويلقينى فى غبش صبح يتنفس الريب والشكوك ، وكثيراً ما كنت أستيقظ من أحلامى ، أنفض صور الذعر وأطرد الخيالات المرعبة ، ولكننى كنت أتجلد وأبتسم ! . كل شىء فى ميناء الوطن باق على ما كان عليه ، إلا مظاهر مجلوبة ، ورطانة مقتبسة ، بمت المدينة ، لم ألتفت إلى همة ناشطة فى حركة البناء والتعمير ، بل شقت سيارتى طريقها إلى الجبل . صدمتنى مشاهد بيوت خربة وقرى مهجورة ، أما قريتنا « كفر شيا » مسكن الحبيبة أنيسة فقد كانت مثالاً بارزاً للأطلال الدارسة . أين أبى وأمى ؟ أين أنيسة ؟ أسأل الجار ولا جار ، وسألت الناس وإذا بهم غير الناس . جبت الدساكر المتناثرة حول القرية . لجأت إلى دير « القرقفة » إلى القساوسة ، استعنت بالعجائز على التعرف على أهلى وأقربائى ففزت منهم بفيض من الأخبار المرتجلة والأكاذيب المفتعلة ، والحيرة الكبرى ! ؟ ذهبت إلى مدينة « زحلة » أسأل عن أمى وأبى فقيل لى : إنهما رحلا عن المدينة منذ سافرت ! قد يكون الموت اختار والدى الشيخين ، ولكن أنيسة ، الريانة الشباب ، الغريضة الصبا ، هل يقوى الموت اللعين على أن يمد لها يداً ؟ هذا محال

بل المحال هو هذا ! نهض من مكانه وأخذ يتمشى بخطوات واسعة ، ولما عاد إلى مجلسه كنت أتخيل أمارات الهلع ترتسم على محياه فتحل عقدة صبره ، وإذا بجبينه تعلوه مسحة من أمل . فقال بصوت حازم : لا يستنيم الأمل في نفسي ولا يهجع . سأترصد الرجاء وأقاوم شبهات اليأس ، وأجد أنيسة . سأجدها لأني أرى بصيصاً من روحها يشع في أعماق نفسي ، وأصغي إلى هاتف روحها يدعوني ، إذن سأجدها . استعادتني أشغالي المتعطلة إلى أميركا ... استغرقتني الأعمال أو كادت تنحرف بي عن اتجاه بصيص أمل كنت أتطلع إليه . كان خيال « أنيسة » يلازمني دائماً ، في الفراغ وفي العمل ، ولم أكن أذكر والدي المسكينين إلا قليلاً ، أستنزل عليهما الرحمة أو أكاد قسيساً إقامة صلاة على روحيهما . لم يكن نداء أنيسة آتياً من وراء المجهول ، بل كنت أسمعها وأراها وأحس بها تتقلب على أذرع الوجود ! هل تزوجت ؟ أشقية هي ؟ ! وفي يوم من أيام ربيع عام ١٩٣٧ لج بي لاعج خفي فنازعتني نفسي ودفعت بي - على رغم مني - إلى العودة إلى الوطن أعيد الكرة في الاستقصاء والاستخبار . لم أمهل عقلي مهلة ليهديني إلى الممكنات ويريني المستحيلات ، بل لبيت الهاتف الخفي وعدت إلى لبنان . وفي صبيحة يوم بينما كنت أصعد الجبل إلى كروم العنب والتين ، إذا بي ألقى فتاة تحمل سلة على كتفيها مغطاة بورق الدوالي . نظرت إليها فإذا بها وضاحة المحيا ، ساجية الطرف ، مليحة المعارف . استوقفتها فأجفلت . لمحت في عينيها نور نفس أنيسة . صرخت على رغم مني : أنيسة ، أنت أنيسة ؟ !

وقفت الفتاة مبهوتة تجيل نظرة حيرى من عينين عقيقيتين مغرورقتين بدموع رقيقة وقالت : لست أنيسة يا سيدي ، بل أنا يمنى ، اسمي يمنى .

يمنى ! يمنى من ؟ أين أمك ، من هو أبوك ؟

ألقيت أسئلتي بنبرات سريعة جافة كادت تربك الفتاة ، ولكني استدركت الأمر بتهدئة اضطرابي فتعمدت الابتسام لأدخل الطمأنينة على نفسها ، فقلت هل لك أن تحدثيني عن والدتك وأين هي الآن ؟ قالت بصوت مختنق : تعيش أنت يا سيدي ! لقد ماتت أمي ومات أبي من زمن بعيد . قلت : أتذكرين صورة أمك وما وصفها ؟ قالت : مات والدي قبل اكتمال وعيي ، وكل ما أعرفه عن أمي أنها ماتت نفساء وأنها تدعى أنيسة الخشناوي ، أما أبي فأرمني لا يحسن أحد نطق اسمه . واستطردت كأنها أحست تشوق إلى الاستطلاع فقالت : إن عائلة بطرس بك قد ضمتني إليها ، وقد نشأت واستيقظت نفسي بين أولاده وخدامه .

كادت عبارتها في وصف يقظة نفسها تشغلني عن غرضي وقد أحسست بعاملين قويين وثبا عليّ وأغارا على مشاعري : عامل الأمل ، وقد تحقق بلقيا هذه الفتاة التي لا شك أنها ابنة أنيسة ، وعامل نفساني يماثل يقظة الحب التي استيقظت حين رأيت أمها إلى جانب والدتي ساعة الوداع في الهجرة الأولى . رافقتها إلى بيت مخدومها ، وإذ كنا في الطريق كنت ألمح فيها طمأنينة الطفل إلى جوار أمه ، وكانت ، الأفكار ، والصور ، والتخيلات وصور الماضي والحاضر والمستقبل تتعاقب على ذهني فتزدحم فيه وتكتظ . طلبت من بطرس بك يد خادمته « يمنى » فلم يمانع في الطلب بل علقه على رضا زوجته التي كان يعز عليها فقد خادمتها اليتيمة التي لا تليق بمقامي المرموق . لم أدع « يمنى » تشعر طوال أيام الخطوبة أني كنت أعرف أمها ، وقد نام أو كاد تمحي من ذهني صور الماضي التي تقمعت وانبثقت متجسدة في شخص « يمنى » . أخذت أوقظ نفسها وأشعرها ، رويداً رويداً ، بوجدانها الذاتي كإنسان له كامل الحق في وجوده وحريته في الحياة . كانت تصغي إلى أقوالي بوعي وتتلقفها بعينيها . صرنا نقرأ الكتب فاندمجت روحها بروحي ، وما عتمت أن تحولت من تلميذة نجيبة إلى فتاة تدرك وتدري وتتذوق وتتمرد . لم تمنيت مطاولة الزمن لأيسر لها مجال الروح في حلبة الحياة بدراية وفرح ، وكنت أنسى فوارق العمر وقد ناهزت الخمسين ، وهي تشرف على العشرين . لذلك أسرعت إلى عقد إكليلي وقد تطوع بطرس بك وزوجته أن يكونا « إشبينينا » في الزواج ، وقد أصرت زوجة بطرس بك على إلباس عروسي « فروة » الشيخة إجلالا لفتاة يتيمة انتقلت إلى مصاف الطبقة العليا .

صمت محدثي قليلاً وقد علت وجهه سحابة غبراء ، ولكن ما لبث حتى أشرق جبينه وقال : جعلت أنا الرجل الكهل فاتحة غرام لزوجتي الصبية وقلت : أترى تكون بنيتي هذه خاتمة غرامي كما كانت مقدمة كتاب حياتي ؟ كان مجرد هذا الخاطر وقد داهم ذهني ليلة الزفاف ، كافياً لأن يبعث في حيوية بكراً ، ويدفعني إلى أن آلي على نفسي وقف وجودي وما أملك على زوجتي ابنة حبيبتي . كم تمنيت في ساعات الغبطة والهناءة التي كانت تفيضها زوجتي عليّ أن تطبق بأصابعها أجفاني فأنام أسعد نومة أبدية ، ولكن سرعان ما كنت أنتفض مذعوراً إذ أتخيل استجابة أمنيتي فأقبض بذراعي القويتين على جسم زوجتي البض اللدن أتشبث به كالطفل ، أتمتم بكلمات متقطعات أغمغمها بلا وعي استحياء منها ومن نفسي الملتاعة . لا تعجب يا صاحبي إذا قلت لك إني كنت أحيا بشخصيتين ، وأعيش بماضيين ، وقد كنت أقوى على صهر روحي في بوتقة لا دخل فيها ولا زيف ، وعرفت السعادة معرفة حسية ، واستبدلت أنواعاً منها عامة شائعة بنوع لدني روحي بحت . اذكر يا صاحبي فوارق العمر ، وتنوع الاختبارات ، ولا تنس فواصل العقل ونزعات المشاعر ، ولك أن تقدر بعد هذا أن اضطرابي وخلجات نفسي ووساوسي ليست سوى مجرد أوزان قلقة لرجل شارف الخمسين من عمره ليعيش في جنون العشرين . ضحكت طويلا من الزمن وانتقمت كثيراً منه ! وسخرت من تقديرات أناس يعيشون في الضباب ويقدرون علة في زهرة لم تتفتح أوراقها في الربيع ، حاسبين وجوب انطباق علم النبات على عالم الإنسان ، جاهلين النفس وعجائب الغريزة وأسرار الروح ، وقد تفتحت أكمام روحي في غير فصل الربيع . سنحت التفاتة مني فلقيت رفاق الباخرة ، الأميركان الطلعة مشرئبين كأن أعناقهم تمتد إلينا لتسمع آذانهم حديثنا ، وكانت هذه الالتفاتة سبباً لانتشال محدثي من أعماق نفسه . أشعل لفافة وأخذ ينظر إلى حلقات دخانها تفنى في الهواء . لم أكن أجرؤ على مطالبته بإتمام حديثه . أطفأ سيجارته ثم التفت ، فلمحت ابتسامة باكية ترتسم على فمه وقال : انقضى الصيف والخريف ، ثم الشتاء والربيع ، وأنا قابع في داري أرتع بنعم تفيضها عليّ زوجتي المحبوبة ، مشمولا بعناية خاصة منها ، وكانت كلما طمأنت نفسي بالغبطة تهيئها بغريزتها لغبطة جديدة ، وهكذا كنت أرى الأوضاع مقلوبة كأني أنا وليست هي الطفل الخليق بالتدليل ! لم أكن زوجاً بل أباً ، ولم تكن لي سوى ابنة معبودة ، وكان هذا الإحساس المختلط يحفزني إلى إشعارها بأني زوج قبل كل شيء ، وكان الحياء يصدني تارة ، وتارة أخرى يدفعني إلى إثبات رجولتي ، وكان يجن جنوني كلما داهمني إحساس تخاذل أو فتور ، إنما الشعور بالتخاذل في مثل هذا الحال يخلق الحركة العنيفة دون وعي . أطلقت السيادة للجسد ، وجعلت العقل خادمه المهمل ، اسمع يا صاحبي لا شيء يجعلنا ننحرف عن سبيل هدى الطبيعة سوى عنعنات العقل ، أليس كذلك ؟ واستطرد . كدت أغرق عند شاطئ الغريزة غير حاسب أنها أوسع وعياً من إدراك الإنسان الحكيم ! أقول لك يا صاحبي إن الغريزة امرأة ، والمرأة إرادة ، والإرادة تحايل على البقاء والخلود ، ولكل هؤلاء غاية واحدة هي « حفظ النسل » وقد تجمعت هذه الإدعاءات وانسجمت متوحدة في ذهني حين همست زوجتي في أذني ، « إنا سنصبح أبوين » . سوف أصبح أباً ؟ يا لجنون السرور ، بل يا للسرور المجنون ! أحقاً يكون لي ولد له لطف الملائكة ولثغتهم وصفاء السماء وتفتح الزهرة ؟ إذن سأحميه باسم المرحوم والدي ، سيبقى اسم عائلتنا بعدي إلى الأبد ، ولكن أتراني أعيش حتى أراه رجلا يستعجله الطمع في الاستيلاء على أموالي ؟ سيان عندي ... سأعود إلى العمل ، وأضاعف ثروتي لا لتكون حجاباً بين ولدي والفاقة ، بل سلماً يتوقل عليه ليبلغ قمة المجد الزمني . هذا ما جال في خاطري ساعة وافتني البشرى السعيدة . غدوت يا صاحبي في فردوس من الغبطة والسعادة يرف على خمائلها خيالي الفياض ، وتبدع في زخرفتها وتنميقها تصوراتي . لم أكن ذلك الراعي وقد صدمت هراوته جرة السمن فانسلقت أحلامه ، وتلاشت آماله وأمانيه ، بل كنت ذلك المحارب الهمجي الظافر لم يصده التهم عن الأسلاب والسبايا و ينتقص الحرص والحيلة من ادخاره استعداداً لحرب مقبلة عادت إليّ أطماعي طافرة وتنبهت هواجسي وظنوني ، خلت الأيدي التي تعمل في إدارة أعمالي تنهب خيراتي ، وصور شيطان الحرص أن عمالي الأمناء ائتمروا بولدي ليحرم ما كسبته طوال أعوام الشباب بعرق الجبين وادخرتها له وحده

(البقية في العدد القادم)

حبيب الزحلاوي